

Meaning in Surat Al-Insan (The Man) A Pragmatic – Grammatical Study

Laith Sadoon Kuah

PhD, Educational Directorate of Wasit province

Abstract: *The present research aims to identify the relationship between pragmatics and grammar or structure and the aspects of similarity and difference between the two. Pragmatics largely overlaps with linguistics or its various levels, especially with semantics and grammar.*

Moreover it overlaps with several scientific and linguistic branches, for this field of study is not specialized in nature and can serve different disciplines. the most important of which are philosophy and linguistics . The focus of the present study is on the linguistic pragmatics as it constitutes a part of the grammatical description.

Keywords: *Pragmatics, Grammar, Conversational Implicature*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المنتجبين .
أما بعد ...

يشكلّ الدرس اللغويّ (النحو) ، قيمةً كبيرةً في تأصيل أمّتنا العربية وتأسيس للمستقبل على أصول الماضي ، ولقد كان من مظاهر اكتمال علم اللسانيات (التداولية) ، إذ عكفوا على التراث اللغويّ القديم يدرسونّه ، ويستلهمون فيه ما يُسهم في إرساء دعائم لسانيات حديثة ، ولقد أثرت في بحثي هذا ، أن أربط بين تراثنا اللغويّ العربيّ (النحو) ، والظاهرة الأبرز في الدراسات اللسانية المعاصرة إلّا وهي (التداولية) ، وقد تخصص هذا البحث في العلاقة بين النحو والتداولية على وجه التوافق والإختلاف ، وكان هذا جزءاً من دراستي فضلاً عن دراسة المعنى وأثره في سورة الإنسان في مبحثين هما الدلالة الزمنية لـ (كان) في سورة الإنسان والاستلزام الحوارية وتطبيقاته في سورة الإنسان ، ونطمح أن يكون هذا البحث مساهمةً جديدةً ، وتأكيداً لإمكانية تطبيق المنهج النحوي والتداولي على الخطاب القرآني ، فوقع الاختيار على سورة الإنسان التي نزلت في شأن أهل الرسول (عليهم الصلاة والسلام) ، والتي تدعو إلى التكامل والسمو حتى تبلغ درجة الأبرار ، الذين تصبغ شخصيتهم الفذة صفة الوفاء بالندى ، والخوف من يوم القيامة والإيثار والترفع عن شهوة المدح وحبّ التسلط على الآخرين ، وقد اشتمل البحث على ثلاث مباحث :

المبحث الأول : النحو والتداولية بين التوافق والإختلاف ، والمبحث الثاني : كان ودلالاتها في النص القرآني ، والمبحث الثالث : الاستلزام الحوارية وتطبيقاته في سورة الإنسان ، وجاء هذا البحث في الكشف عن المعنى في سورة الإنسان ، وكذلك الكشف عن العلاقة بين النحو والتداولية .

المبحث الأول

النحو والتداولية بين التوافق والإختلاف

- التوافق :

" النحو يشمل علاقات جـوهريـة بنويـة بين الوحدات الصرفية ، وهو ما يؤدي إلى أن يكون الوصف النحوي خالياً من عدد كبير من المعايير المنطقية أو الملامح الدلالية التي علفت به من ميراثه التقليدي العريق ، ومع ذلك من الصعب استبعاد جميع القيم الدلالية من مجال النحو ؛ فعندما يضع النحاة - مثلاً - مراتب مثل المبني للمعلوم مقابل مبني للمجهول ، أو مرتبة مقابل المثني والجمع فإنّ عليهم أن يأخذوا بعين الاهتمام جانب المعنى في تحليلهم ، وإن كانوا يحتفظون له بدرجة الأولوية السابقة نفسها ، وعمامةً فإنّ النحو يظل يحتل مكاناً يسبح بين الصرف والدلالة"⁽¹⁾ .

إنّ النحو بقواعده وخصائصه غير منقطع الصلة عن التداولية " فالجملة بحسب القواعد لا تمثل إلا تركيباً يمكن في إطاره تخطيط الوحدات الدلالية والتداولية ، ويعدّ بعض السانين الجملة تركيباً لا بدّ أن توجد به هذه الوحدات ، غير أنّ الممارسة تهدم دعوى الاستقلال المزعوم للنحو ؛ لأنّ الكثير من الصفات المنسوبة إلى الجملة تنتمي في الواقع إلى الوحدات الدلالية والتداولية " ⁽²⁾ .

ومن جانب آخر تتصل التداولية بعلم النحو وعلم الدلالة معاً ، ويتمثل ذلك في أنّ علم النحو يهتم بدراسة الخصائص الشكلية والبنائية اللغوية ، أمّا علم الدلالة فهو يختص بدراسة العلاقات القائمة بين الماهيات اللغوية الدلالية والعالم الخارجي ، والتداولية شأنها شأن علم الدلالة لا تتوانى عن الغوص في مآهات المعاني ؛ لأنّ المعنى يضطرننا في بعض الصيغ اللغوية إلى العودة لدراسة الطريقة التي قام خلالها المتحدث بناء الجملة ، فحينها يقوم المتحدث بلفظ جملة معينة ، فإنّه يحيل - شئناً أم أبيضاً - إلى واقع أو إلى حالة من الأشياء أو الموضوعات التي يتحدث عنها ما وقد لا يكون هذا الواقع ممثلاً بالضرورة في الجملة ، ومن ثم يجب أن يأخذ بعين الاعتبار سياق اللفظ والعناصر الداخلة في تركيب الجملة ؛ لكي يتمّ من فهم منطوق المتحدث⁽³⁾ .

- الاختلاف :

وقد صنّف "هرمان باريه" مباحث النحو ومباحث التداولية حسب الشروط التي يعتني بها كلّ اختصاص "فالنحو يهتم بشروط الصحة أو السلامة أو السلامة النحوية ، أمّا التداولية فتعنى بشروط الكفاية ، أي القوة في مقابل المحتوى ، بالتفاعل أو التعاون في مقابل الصحة ، وبالمقبولية في مقابل النحوية إلى غير ذلك من الأزواج الاصطلاحية ، فالتداولية وفق هذه الرؤيا تشدّ إلى دور الملحق في مقابل النواة التي يهتم بها النحو ؛ لذلك ينبغي اعتماد تصور تجريدي مضاد تعدّ التداولية فيه قاعدة مدمجة للنحو أو النظرية اللسانية"⁽⁴⁾ ، ومنّ يرى التداولية لا تنتمي إلى أي من مستويات الدرس اللغويّ (صوتية كانت أم صرفية أم نحوية أم دلالية) كما أنّها لا تمثل مستوى أيضاً إلى هذه المستويات ؛ لعدم وجود أنماط تجريدية ووحدات تحليلية تمثل هذا المستوى ما فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة ، بل ممكن أن تستوعبها جميعاً⁽⁵⁾ .

تتناول التداولية الأفعال اللفظية أو الأداء الذي يحصل في مواقف معينة في حين يتناول النحو كيانات مجردة مثل الجمل إذاً ، فالتداولية تتعامل مع اللغة على مستوى أكثر ملموسية من النحو والدلالة⁽⁶⁾ ، وكما تظهر أهمية التداولية في تجاوز النظر اللغوي فيها مستوى الجملة إلى النص ككلّ ؛ المعطيات السياقية والمقامية التي جعلته يرد بتلك الصورة ؛ ضماناً للفهم والإفهام⁽⁷⁾ ، التداولية علم استعمال اللغة في حيز الاستعمال ؛ فتجاوز حدود الوضع الأصلي ، وإن كان يثني عليه وذلك ؛ لأنّ مقاصد المتخاطبين لا يمثلها الوضع اللغويّ المجرد فقط ، ولا يمكن الوصول إليها ، إلا من خلال فهم اللغة في سياق الاستعمال المتجدّد ، يتجدّد مقاصد المتكلمين ، يسندّ فيه المتخاطبون إلى الوضع اللغويّ ، ويتجاوز وزنه تلبّيه لمقاصدهم وأغراضهم⁽⁸⁾ ، ونخلص في النهاية إلى أنّ النحو يعنى بتوضيح الشروط المحددة ، والقواعد التي تضمن صياغة الأقوال الجيدة ، وتهتمّ الدلالة بالشروط التي تجعل الأقوال مفهومة وقابلة للتفسير ، بينما تعنى التداولية بالشروط اللازمة ؛ لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصلية الذي يتحدث فيه المتكلم⁽⁹⁾ .

المبحث الثاني

كان ودلالته الزمنية في النص القرآني

ذهب أكثر النحاة إلى أنّ " كان " ليس فيها عنصر الحدث وإنّما تجردت للزمن فقط ، قال ابن يعيش (ت643 هـ) ، " وأما كونها ناقصة فإنّ الفعل الحقيقي يدل على معنى وزمان نحو قولك (ضرب) فإنّه يدل على ما مضى من الزمان ، وعلى معنى الضرب ، و" كان " إمّا تدل على ما معنى من الزمان فقط (يكون) تدل على ما أنت فيه ، أو على ما يأتي من الزمان ، فهي تدل على زمان فقط ، فلمّا نقصت دلالتها كانت ناقصة ... إلا أنّها لمّا دخلت على المبتدأ والخبر ، وأفادت الزمان في الخبر ، صار الخبر كالعروض من الحدث ؛ فلذلك لا تتم الفائدة بمرفوعها ، حتى تأتي بالمنصوب⁽¹⁰⁾ ، وقيل : " لأنّها سلبت معانيها من المصادر وبقيت دالة على الزمن المجرد " ⁽¹¹⁾ ، أمّا الزمخشري (ت538 هـ) فأرأها عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإيهام وليس فيه دليل على عدم سابق ولا انقطاع طارئ ، ومنه قوله تعالى: ((وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)) (النساء: 96) ⁽¹²⁾ ، أما ابن مالك (ت672 هـ) فقد رأى دلالتها على الاستمرار⁽¹³⁾ .

من شواهد كان في القرآن الكريم :

قال تعالى : ((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا)) (الإنسان : الآية 1) .
 لقد ذكر الألويسي (ت1270هـ) في هذا المعنى : " لم يكن شيئاً مذكوراً بلى كان شيئاً غير مذكور
 بالإنسانية أصلاً أي غير معروف بها على أن النفي راجع إلى القيد والمراد أنه معدوم لم يوجد بنفسه بل
 كان الموجود أصله مما لا يسمى إنساناً ، ولا يعرف بعنوان الإنسانية ، وهو مادته البعيدة أعني العناصر أو
 المتوسطة ، وهي الأغذية أو القريبة ، وهي النطفة المتولدة من الأغذية المخلوقة من العناصر ... " (14) ، وقد ذكر
 ابن عاشور (ت1393هـ) هل يقر كل إنسان موجود أنه كان معدوماً زماناً طويلاً فلم يكن شيئاً يذكر ، أي لم يكن
 يسمى ولا يتحدث عنه بذاته " (15) .

يبدو مجيء الفعل (يكن) في الآية الماضي المنقطع ، وهو في الغالب عليها ، وهو ضربٌ يرادُ به أنه
 حصل مرةً ، ولم يكن وصفاً ثابتاً (16) ، وأغلب ما جاءت به في الآية دالاً على المعنى المنقطع (لم يكن) الذي أفاد
 المعنى المنقطع وجاء الفعل الناقص (يكن) ما هو أكثر لمعنى الآية .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ((إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا)) (الإنسان : الآية 5) .
 يرى الكثير من المفسرين : " إن للشراب أهل الجنة رائحة وطيبة كرائحة الكافور ، ونقول نحن : إن
 المزج بالكافور في الدنيا كريهاً ، فليس من الضروري أن يكون في الجنة كذلك ، فخمرة الدنيا توجب الصداع ،
 والأوجاع ، وخمرة الجنة لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون " (الصافات : الآية 47) (17) .

ويذكر ابن عاشور: " وإقحام فعل (كان) في جملة الصفة بقوله: (كان مزاجها كافوراً) لإفادة أن ذلك مزاجها لا
 يفارقها إذ كان معتاد الناس في الدنيا ندره ذلك المزاج لغلاء ثمنه وقله وجدانه " (18) ، ويرى الدكتور فاضل
 السامرائي هنا في هذه الآية " (كان) من باب تنزيل المستقبل بمنزلة الماضي ، لبيان محقق الوقوع ، وأنه بمنزلة ما
 مضى وفرغ منه ، وهذا في القرآن كثير ، فإن القرآن كثيرٌ ما يخبر عن ما مضى ، فكما أن الذي وقع وحصل لا
 شك فيه " (19) .

دلّت (كان) على أشياء ماضية وظلت ماثلة وعالقة للدلالة على الاستمرار والتحقق ، وأيضاً قوله
 تعالى: ((يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ لِيَوْمٍ كَانُوا شُرُكًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ)) (سورة الإنسان : الآية 7) .
 يقول الزمخشري (ت538هـ) : " والوفاء بالندر مبالغة ووصفهم بالتوافر على أداء الواجبات ؛ لأن من
 وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى (مستطيراً) فاشياً منتشراً بالغاً أقصى المبالغ " (20)

وذكر ابن عاشور : " ووصف اليوم بأن له شراً مستطيراً وصفاً مشعراً بعلّة خوفهم إياه ، فالمعنى : أنهم
 يخافون شر ذلك اليوم فيتجنبون ما يفضي بهم إلى شره من الأعمال المتوعد عليه بالعقاب " (21) ، ويذكر أيضاً " ذكر فعل (كان) للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه وإلا فإن شر ذلك اليوم ليس واقعاً في الماضي ، وإنما يقع
 بعد مستقبل بعيد ، ويجوز أن يجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه (22) .
 وأيضاً قوله تعالى : " ((وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا)) (الإنسان : الآية 15) ،
 وجاء في قول الألويسي " (كأنت قواريراً) " أي تلك الأكواب (قواريراً) ، جمع " قارورة " وهي إناء رقيق من
 الزجاج يوضع فيه الأشربة ونصبه على الحال فإن " كان " تامة ، وهو كما تقول : خلقت قواريراً ، وقوله تعالى :
 (قواريراً من فضة) بدل والكلام على التشبيه البليغ ، فالمراد تكونت جامعة بين صفاء الزجاج وشفيفها ولين
 الفضة وبياضها .. (23) ، ويرى ابن عاشور : " وفعل " كانت " هنا تشبيه بليغ ، والمعنى إنها مثل : القوارير في
 شفيفها ، وقرينة ذلك قوله : " من فضة " ، أي هي من جنس الفضة في لون القوارير ؛ لأن قوله " من فضة " حقيقة ،
 فإنه قال قبله : بأنيّة من فضة " (24) .

وكذلك قوله تعالى : " ((إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا)) (الإنسان : الآية 22) ، وأشار ابن
 عاشور " والمقصود من ذلك الثناء عليهم بما أسلفوا من تقوى الله وتكرمتهم بذلك وتنشيط أنفسهم بأن ما أنعم به
 عليهم هو حق لهم جزاء على عملهم ، وإقحام فعل " كان " للدلالة على تحقيق كونه جزاء لا مناً عليهم بما لم
 يستحقوا ، فإن من تمام الإكرام عند الكرام أن يتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المكرم ويزيل عنه ما يعارض من
 خجل ونحوه ، أي هو جزاء حقاً مبالغة في ذلك " (25) ويراد بـ " كان " الاتصاف بالحدث في الزمن الماضي
 على وجوه الثبوت نحو : (كان محمدٌ شاعراً) و(كانوا أشد منكم قوة) أي متصفين بهذه الصفات على وجه الثبوت
 ، وهذا إذا كان خبرها اسماً (26) ، و(كان) هنا في هذه الآية تدل على ما مضى من الزمان فقط أي الزمان المتحقق
 (الماضي المنقطع) .

ومن الشواهد قوله تعالى : " ((وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)) (سورة الإنسان :
 الآية 30) .

جاء في تفسير الكاشف : " إن الله كان عليمًا حكيمًا عليم بأحوال عباده حكيم لأنه لا يأمرهم إلا بما فيه

الخير والصلاح ، ولا ينهاهم إلا عمّا فيه الشر والفساد ، يدخل من يشاء في رحمته ، المراد بالرحمة هنا الجنة ، وقد اقتضت حكمته تعالى ومشيئته أن لا يدخل الجنة أحداً إلا بالجدّ والعمل" (27).

وقال السيوطي (ت911هـ) : " دلالة " كان " بمعنى الأزل أي الاستمرار في جميع الأزمنة " (28) ، وذكر النحاس : المعنى " دال على الاستمرار التجديدي " (29) ، ومنهم من يرى " وفعل " كان " يدل على أنّ وصفه تعالى بالعلم والحكمة وصف ذاتي ؛ لأنهما واجبان له " (30) ، و " كان " توجب أن يكون الله عليمًا حكيمًا بصورة مستمرة عبر الأزمنة .

المبحث الثالث

الاستلزام الحواري في الفكر اللغوي العربي القديم

ظاهرة الاستلزام الحواري من الظواهر التي تنبّه لها العرب في دراساتهم وقد لوحظت في علوم النحو والبلاغة ، وعلم الأصول ، غير أنّ هذه الملاحظات لم تتعدّد مستوى الملاحظة ؛ لهـذا الظاهرة مع وضع المصطلحات تختلف باختلاف العلوم ، والأغراض التي تخرج إليها الأساليب في : دلالة المفهوم الفرعي ، والمعنى المقامي (31) ، وإذا تتبعنا التـراث العربي وجدنا الاستلزام الحواري أصيل في التراث العربي ؛ إذ قال الرازي (ت606هـ) : " إنّ اللفظ إذا وضع لمسمى انتقل من المسمى إلى لازمه " (32) ، ورصد السكاكي (ت626هـ) في كتابه مفتاح العلوم ، وقام بوصف هذه الظاهرة وتحليلها تحت مسميات كثيرة عدة تشير إلى المضمون (33) ، وبعد ما ورد في كتابه المفتاح التفـصّلات مهمة لتحليل ظاهرة الاستلزام الحواري في التراث العربي ، وهناك أكثر من دليل على وجود هذه الظاهرة في تراثنا العربي ، ويؤكد هذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) في باب " اللفظ والمعنى " إذ يعدّ الكلام ضربين ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ؛ وذلك إذا قصدت أن تختبر عن زيد مثلاً : بالخروج عن الحقيقة فقلتُ (خرج زيد) الإنطلاق عن " عمرو " فقلتُ " عمرو منطلق " ، وعلى هذا القياس وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ عن معناه الذي تقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض مدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل (34)

الاستلزام الحواري عند الغربيين :

يعدّ الاستلزام الحواري هو أحد المجالات اللسانية التداولية المهمة التي عُني بها " بول غرايس " عندما كان يلقي محاضراته في جامعة هارفارد سنة 1967م ، منطلقاً من فكرة " أنّ الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون ، وقد يقصدون أكثر ممّا يقولون ، وقد يقصدون عكس ما يقولون ، فأراد أن يقيم بين ما يحمله القول من معنى صريح وما يحمله القول من معنى متضمن ممّا نشأ عنه فكرة الاستلزام الحواري " (35) أراد الوقوف على القول المتضمن غير المصرّح به ، وكيف للمتلقّي أن يعي ما يقوله المتكلم ، وماذا يُرادُ به ، وهذا من مستلزمات الحوار ؛ لذلك " فالاستلزام الحواري يعدّ واحداً من أهم الجوانب في الدرس التداولي ، فهو الصقها بطبيعة البحث فيه ، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدرس الدلالي ... خلافاً لكثير من موضوعات البحث التداولي " (36) ، ويمكن أن يقال " الاستلزام الحواري هو ابن اللغة الحية المستعملة ، ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق استحضار البيئة التي ولد فيها ، والمقصد من أجله جاء على هذه الصورة أو الوظيفة من أجلها اللغة (37) ، ويجدر بنا أن نذكر أنّ الاستلزام الحواري أحد أركان التداولية ظهر مع " بول غرايس " ، وفي هذا الصدد قد أشار " أحمد المتوكل " إذ يقول : " لاحظ غرايس أنّ جمل اللغات الطبيعية يمكن ، في بعض المقامات تدلّ على معنى غير المعنى الذي يوحى به محتواها الفوضوي أو معناها الحرفي " (38)

ونفهم أنّ العبارات اللغوية قد تختفي وراء ملفوظات توحى بحادثة أو صفة متعلقة بها دون أن نذكرها ، وتقوم نظرية غرايس في الاستلزام على النظر إلى استعمال اللغة بوصفها ضرباً من الفاعلية العقلية التي تستهدف تحقيق الاتصاليين بين الناس ، وهذا الاتصال محكوم بمبدأ التعاون الذي قوامه أربع مقولات (39) . ويلاحظ أنّ السياق له الأثر الرئيس في تحديد مرامي المعنى أو الهدف المنشود وممّا كان يشغل غرايس هو كيف يكون ممكناً أن يقول المتكلم شيئاً ويفهم شيئاً آخر ، وقد وجد حلاً لهذه الإشكالات فيما أسماه مبدأ التعاون بين المتكلم والمخاطب ، وهو مبدأ حوارِي عام يشمل مبادئ فرعية "

- مبدأ الكم (Quantity) :

أجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه .

- مبدأ الكيف (Quality) :

لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح ، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه .

- مبدأ المناسبة (Tolerance) :
أجعل كلامك ذا علاقة مناسبة للموضوع .

- مبدأ الطريقة :
كن واضحاً ومحددًا فتجنب الغموض وتجنب اللبس وأوجز ورتّب كلامك " (40)

شواهد الاستئزام الحواري في سورة الإنسان

قال تعالى : ((عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)) (سورة الإنسان : الآية 6) ، ويذكر الطبرسي (ت548هـ) : " (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) أي أولياءه وذكر ابن عباس : أي هذا الشراب من عين يشرب بها أولياء الله وخصّهم بأنهم عباد الله تشریفاً وتبجيلاً ...

" يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا " أي يقودون تلك العين حيث شأوا من منازلهم وقصورهم ، وعن مجاهد والتفجير تشقيق الأرض بجري الماء ، وقال وأنهار الجنة تجري بغير أخدود ، فإذا أراد المؤمن أن يجري نهراً خطأ فنبع الماء من ذلك الموضع ، ويجري بغير تعب ثم وصف سبحانه هؤلاء بالأبرار " (41) ، وذكر ابن عاشور (ت1393هـ) : في هذه الآية إخبار عن وصف حال المؤمنين في الآخرة ، فقد وصفهم سبحانه وتعالى بـ (عباد الله) والمراد بهم : الأبرار والعبودية إلى الله تعالى تعني إضافة وتشريف لهم ، ووضع لهم عيناً في الجنة يشرب بها أولياء الله وخصّهم بأنهم عباد الله تشریفاً وتبجيلاً لهم (42) .

ويتضح ممّا قاله المفسرون : إن العبارات اللغوية في النص (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) و(يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) متخفية وراء ملفوظات توحى بحادثة أو وصف متعلقة بها دون أن تذكرها (43) ، والحوار جسد مبدأ (الكم) الذي يعدّ مخالفاً لمبدأ التعاون عند " غرايس " إذ تجاوز الحوار مبدأ الفائدة من الكلام والرؤيا ، ويتضح لنا بأن المتكلم أراد أن يتم نقل المعاني من ألفاظها إلى المتلقي ، وهي مرتبة في ذهن المتكلم وحسب أهميتها عنده (44) .

قال تعالى : " ((وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)) (سورة الإنسان : الآية 8) .
ذكر الرازي (ت604هـ) : " أعلم إن مجامع الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله " يسوفون بالندر " والشفقة على خلقه وإليه الإشارة بقوله " وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ " (45) ، وفي هذا المعنى ذكر ابن عاشور (ت1393هـ) إذ قال : " والتصريح بلفظ الطعام مع أنه معلوم من فعل (يطعمون) ؛ فإنه لو قيل : ويطعمون مسكيناً ويتيماً وأسيراً لفات ما في قوله (على حبه) من معنى إثارة المحاويج على النفس ... ، والمعنى : أنهم يطعمون طعاماً هم محتاجون إليه ومجيء " على " بمعنى (مع) ناشيء عن تمجيز في الاستعلاء " (46) ، وفي هذا النص القرآني استئزامٌ يشكّل بعداً تداولياً يمثل مقصد المتكلم غير المتلفظ به ، فهو قد يأتي انحراف أحد مبادئ الحوار (مبدأ الكم) يأتي تبعاً لملازمات الحوار من السياق التداولي وملازمات الكلام (47) .

الكلام غير المتلفظ هو أنّ الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين ؛ لغرضين أحدهما : تحصيل رضا الله ، والثاني الاحتراز من خوف يوم القيامة .

وأيضاً قوله تعالى: ((إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)) (سورة الإنسان: الآية 10).

قال الطبرسي (ت548هـ) ، في هذا المعنى : " أي مكفهرًا تعبس فيه الوجوه ، ووصف اليوم بالعبوس توسعاً ، لما فيه من الشدة ، وهذا كما يقال : يوم صائم وليل قائم ، قال ابن عباس : يعبس فيه الكافر حتى يسيل من بين عينه عرق مثل القطران " قَمْطَرِيرًا " أي صعباً شديداً عن أبي عبيدة والمبرد ، وقال الحسن : سبحان الله ما أشد أسمه ، وهو من أسمه أشد وقيل : القمطير الذي يقلص الوجوه ويقبض الجباه وما بين العينين من شدته عن قتادة " (48) .

ويشير النص إلى الحوار غير المصرّح به (المتضمن) في اجتناب هوى النفس وكثرة المحرمات ، وإيثار الأموال مأكلاً وملبساً ، وعدم إطاعة الله سبحانه وتعالى خوفاً من يوم عاصيب عبوس قمطير ويوم القيامة ، ويفهم من الاستئزام بأن المرسل أكثر من طريقة يمكن أن يسلك أحدهما ليصل إلى غايته " وهنا يتوصل المرسل إليه إلى إدراك الهدف الكلي من خطاب المرسل بطريقة الاستئزال غير المباشر وبالرغم من أنه متوارٍ وراء الهدف الجزئي إلا أنه يظل هدف الخطاب الأهم هو الذي جاء الخطاب لتحقيقه " (49) .

ومن الشواهد الأخرى :

قوله تعالى: ((إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)) (سورة الإنسان: الآية 3) وفي هذا المعنى صرح به ابن عاشور (ت1393هـ) إذ قال : " والمعنى : إنا هديناه السبيل في حالة أنه متردد أمره بين أحد هذين الوصفين

وصف شكر ، ووصف كفور ، فأحد الوصفين على التردد مقارنٌ لحال إرشاد إلى السبيل ، وهي مقارنة عرفية ، أي عقب التبليغ والتأمل ، فإن أخذ بالهدى كان شاكراً ، وإن أعرض كان كفوراً كمن لم يأخذ بالإرشاد من يهديه الطريق .. " (50) ، في هذا الكلام نداء على أن الله أرشد الإنسان إلى الحق ، ويتضح أن الرسالة كانت واضحة عند بني البشر ، ويعرف مقصدها ؛ لذلك " وضع غرايس شريطين أساسيين لتحقيق الدلالة المقصودة ، أولاً : أن يكون المتلقي مدركاً لمقصد المرسل في رسالته ، وثانياً : أن يثبت المرسل رسالته ، وثانياً : أن يثبت المرسل رسالته بين بقصد إحداث تأثير معين في المتلقي (51) ، فالوصول إلى المعنى المراد لا بد أن يمر بخطوات ، لتحقيق التعاون بين المتكلم والمتلقي .

ومن الشواهد الأخرى :

قال الله تعالى : " (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا) (سورة الإنسان: الآية 22) ، جاء في تفسير الآية : الإشارة إلى ما يكون حاضراً لديهم من ألوان النعيم الموصوف في الآيات السابقة ، والمقصود من ذلك الثناء عليهم بما أسلفوا من تقوى الله وكرمهم ؛ وبذلك يكون تنشيطاً لأنفسهم بأن ما أنهم عليهم هو حق لهم جزاءً على عملهم ، وعطف على ذلك قوله : " وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا " علاوة على أبنائهم بأن ما أغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوه ، وكان النعيم جزاءً عليه ، وهو سعي مشكور ، أي مشكور ساعيه ، فأسند المشكور إلى السعي على طريقة المجاز العقلي مثل قولهم سئل مُنْعَمٌ (52) ويبدو من رؤية ابن عاشور للنص يتبين له حقيقة تداولية أن علاقة الألفاظ واستجلاء دلالتها لها الأثر الكبير في عملية استنباط المعنى وتحقق مراميها عند المتلقي ، أي الوقوف على متضمنات القول غير المصرح به (اتباع أوامر الله سبحانه تعالى ، والأبتعاد عن المحرمات وتقوى الله في كل الأمور ، وجزاء ذلك النعيم في الدنيا والآخرة) ، فالمتلقي يبسط المعنى المقصود ، وهذا من مستلزمات الحوار ؛ لذلك " الأستلزام الحوارية يعد واحداً من أهم الجوانب في الدرس التداولي ، فهو الصقها بطبيعة البحث فيه وأبعدها عن الإلتباس بمجالات الدرس الدلالي ... خلافاً لكثير من موضوعات البحث التداولي " (53) .

الخاتمة

- حاولت الدراسة الكشف عن العلاقة بين التداولية والنحو ، وأوجه التقارب والاختلاف ، وأتضح لنا بأن النحو يعنى بتوضيح الشروط والقواعد التي تتضمن صياغة الأقوال الجيدة ، وتعنى أيضاً التداولية بالشروط اللازمة ؛ لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة ، وملائمة في الموقف التواصلية الذي يتحدث فيه المتكلم ، وأوجه التقارب بين التداولية وعلم النحو ، فعلم النحو يهتم بدراسة الخصائص الشكلية ، والبناءات اللغوية أما التداولية ، فهي تختص بدراسة العلاقات القائمة بين الماهيات اللغوية والعالم الخارجي .

- وأوجه الاختلاف ، التداولية لا تنتمي إلى أي من مستويات الدرس اللغوي (صوتية كانت أم صرفية أم نحوية أم دلالية) كما أنها لا تمثل أي مستوى أيضاً إلى هذه المستويات ؛ لعدم وجود أنماط تجريدية ، ووحدات تحليلية تمثل هذا المستوى ما ، فهي لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة ، بل ممكن أن نستوعبها جميعاً .

- كان ودلالاتها الزمانية في النص القرآني ، ذهب أكثر النحاة إلى إن (كان) ليس فيها عنصر الحدث ، وإنما تجردت من الزمان فقط ، وجاءت كان في أغلب آيات سورة الإنسان من باب تنزيل المستقبل بمنزلة الماضي ، لبيان محقق الوقوع وإنه بمنزلة ما معنى وفرغ منه ، وهذا في القرآن كثير .

- الاستلزام الحوارية ، يُراد به الوقوف على القول غير المصرح به ، وكيف تجعل للمتلقى أن يعين ما يقوله المتكلم ، وماذا يُراد به ، وهذا من مستلزمات الحوار ، وظاهرة الاستلزام الحوارية من الظواهر التي تنبه لها العرب في دراساتهم وقد لوحظت في علوم النحو ، والبلاغة ، وعلم الأصول ، غير أن هذه الملاحظات لم تتعد مستوى الملاحظة ، وهذه الملاحظة كثر وجودها في سورة الإنسان .

الهوامش

- (1) بلاغة الخطاب وعلم النص ، 85 .
- (2) النص والخطاب والأجراء ، روبرت دي بوجراند ، 89 .
- (3) ينظر : الإتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي ، نادية رمضان النجار ، 17 .
- (4) مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، صابر الحباشة ، 65 .
- (5) ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، محمود أحمد نحل ، 10 .

- (6) ينظر : التداولية ظهورها وتطورها ، لعادل الثامري ، مجلة الموروث ، العدد الثاني والثلاثون ، بغداد ، العراق ، تشرين الأول 2010م .
- (7) ينظر : المشيرات المقامية ، نرجس باديس ، 2009 ، 8 .
- (8) ينظر : التداولية من أوستن إلى غوفمان ، فليب بلانيته ، 55 .
- (9) ينظر : الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغويّ ، 17 .
- (10) يراجع : شرح المفصل ، ابن يعيش ، 7 ، 89-90 ؛ وينظر : أسرار العربية ، 133-134 .
- (11) شرح الكافية - محمد بن ابراهيم بن جماعة ، 408 .
- (12) ينظر : الكشف ، 342/1 ، وينظر : البرهان في علوم القرآن ، 147/4-148 .
- (13) التسهيل ، ابن مالك ، 200
- (14) روح المعاني ، الآلوسي ، 167/15 .
- (15) التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، 457/15 .
- (16) ينظر : معاني النحو ، السامرائي ، 191/1 .
- (17) مجمع البيان ، الطبرسي ، 517/10 .
- (18) التحرير والتنوير ، 464/15
- (19) معاني النحو ، 196/1 .
- (20) الكشف ، الزمخشري ، 196/4 .
- (21) ابن عاشور ، 465 /15 .
- (22) المصدر نفسه ، 465/15 .
- (23) روح المعاني ، 176/15 .
- (24) التحرير والتنوير ، 472/15 .
- (25) التحرير والتنوير ، 480/15 والآلوسي ، 182/15 .
- (26) الهمع ، السيوطي ، 120/1 .
- (27) محمد جواد مغنية ، 486/7 .
- (28) الهمع ، 217/2 .
- (29) إعراب القرآن ، للنحاس ، 440/1 .
- (30) ينظر : المصدر نفسه ، 441/1
- (31) دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ، 96 .

- (32) المحصول في أصول الفقه ، 219/1 .
- (33) ينظر : المفتاح ، 250 ، 259 ، 263 .
- (34) دلائل الإعجاز ، 262 .
- (35) في البراغماتية الأفعال الأنجازية في العربية المعاصرة ، 9 .
- (36) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، 32 .
- (37) التداولية بين النظرية والتطبيق ، 214 .
- (38) اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري ، 27 .
- (39) في أصول الحوار وتحديد علم الكلام ، 103 ، 104 .
- (40) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، 34 .
- (41) مجمع البيان ، الطبرسي ، 518/10 ، وينظر : روح المعاني ، 170/15 .
- (42) التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، 464/15 .
- (43) ينظر : في أصول الحوار وتحديد علم الكلام ، 103 ، 104 .
- (44) ينظر : من أسرار التعبير في القرآن الكريم ، صفاء الكلمة ، 194 .
- (45) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، الرازي ، 216-215/30 .
- (46) التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، 466/15 .
- (47) ينظر : التداولية بين النظرية والتطبيق ، 214 .
- (48) مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبرسي ، 518/10 ، وينظر : المحيط في التفسير ، ابن حيان ، 362/10 .
- (49) استراتيجيات الخطاب ، مقارنة لغوية تداولية ، 164 .
- (50) التحرير والتنوير ، 460/15 .
- (51) تحليل الخطاب والترجمة ، 16 .
- (52) التحرير والتنوير ، 480/15 .
- (53) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، 32 .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغويّ ، نادية رمضان النجار ، الإسكندرية ، مؤسسة حورس الدولية ، 2013م ، ط1 .
2. استراتيجيات الخطاب ، مقارنة لغويّة تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 .
3. أسرار العربية ، لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الانباري ، تحقيق : محمد بهجة البيطار ، مطبعة الترقّي بدمشق ، 377هـ - 1957م .
4. اعراب القرآن للنحاس ، لأبي جعفر أحمد بن اسماعيل النحاس ، (ت 338هـ) ، تحقيق : د.زهير غازي زاهر ، عالم الكتاب ، مكتبة النهضة العربية ، ح3 ، ط2 ، 1985م .
5. آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر ، محمود أحمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، 2002م .
6. البحر المحيط في التفسير ، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الاندلسي الغرناطي (ت 754هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،

- 1426 هـ ، 2005 م .
7. البرهان في علوم القرآن ، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (794هـ) ، تحقيق ، أبو الفضل إبراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ، ط1 ، 1376 هـ ، 1975 م .
8. بلاغة الخطاب وعلم النص ، د.صلاح فضل ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1413 هـ ، 1992 م .
9. التحرير والتنوير وتحليل المعنى وتنوير العقل الجديد من تعبير الكتاب المجيد ، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت1393) ، الناشر : الدار التونسية ، تونس ، سنة النشر : 1984 م .
10. تحليل الخطاب والترجمة ، د. محمد البطل ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونغمان ، ط1.
11. التسهيل ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ابن مالك (ابو عبد الله جمال الدين) (672هـ) ، تحقيق : محمد كمال بركات ، العربية المتحدة ، وزارة الثقافة ، المكتبة المركزية ، دار الكتاب العربي ، 1968.
12. التداولية بين النظرية والتطبيق ، د. احمد كنون ، دار النابعة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1436 هـ ، 2005 م .
13. التداولية ظهورها وتطورها ، لعادل الثامري ، مجلة الموروث ، العدد الثاني والثلاثون ، بغداد ، العراق ، تشرين الاول ، 2010 م .
14. التفسير الكبير ، ابو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي ، (ت604 هـ) ، دار احياء التراث العربي ،

- بيروت ، ط3 ، 1420هـ .
15. التفسير الكاشف ، محمد جواد مغنية ، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ، ط4 ،
1428هـ ، 2007م .
16. دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ، أحمد المتوكل ، دار الثقافة للنشر
والتوزيع ، الدار البيضاء ، 1986م ، ط1.
17. دلائل الاعجاز في علم المعاني ، تأليف عبد القاهر عبد الرحمن الجرجاني ،
(ت 471 هـ) منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتاب العلمية بيروت ، لبنان
، ط ، 1422هـ ، 2001م .
18. روح المعاني ، تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، العلامة أبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، (ت1270هـ) ، ضبطه وصححه
علي عبد الباري عطية ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط3 ،
2009م .
19. شرح الكافية ، ابن جماعة محمد بن ابراهيم بن سعد الله ، (ت 733هـ) :
تحقيق محمد عبد النبي عبد المجيد ، ط1 ، 1408 هـ ، 1987 م .
20. شرح المفصل ، للشيخ العلامة جامع الفوائد موفق الدين يعيش (ابن علي بن
يعيش النحوي) ، (ت643هـ) ، عنيت بطبعة ونشره إدارة الطباعة المنيرية ، ط1
، (د.ت) .
21. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي
العربي ، الدار البيضاء ، ط2 ، 2000م .
22. في البراغماتية الأفعال الأنجازية في العربية المعاصرة ، دراسة مجمعية ومعجم
سياقي ، علي محمود الصراف ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، 2010م .

23. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف ابي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، (ت538هـ) ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .
24. اللسانيات الوظيفية ، مدخل نظري ، احمد المتوكل ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2010م .
25. مجمع البيان في تفسير القرآن ، مؤلفه الشيخ ابو الفضل بن الحسن الطبرسي (548هـ) ، تحقيق : الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، دار الاحياء التراث العربي بيروت ، لبنان ، ط1 .
26. المحصول في أصول الفقه ، محمد بن عمر بن الحسين ، فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1408هـ ، 1988م .
27. المشيرات المقامية ، نرجس باديس ، مركز باديس ، مركز النشر الجامعي ، 2009م .
28. معاني النحو ، تأليف : فاضل صالح السامراني ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1428هـ ، 2007م .
29. مفتاح العلوم ، تأليف : ابي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي ، (ت626هـ) حققه وقدم له فهرسه : د.عبد الحميد الهنداوي ، منشورات محمد علي بيضوي ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1435هـ ، 2014م .
30. مقامرة المعنى من النحو الى التداولية ، د.صابر الحباشة ، دمشق ، دار صفحات للنشر ، 2011م .
31. من أسرار التعبير القرآني في القرآن الكريم ، صفاء الكلمة ، تأليف عبد الفتاح لاشين دار الفكر العربي ، 2012م .

-
32. النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند ، ترجمة : د.تمّام حسان ،
عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 1418 هـ ، 1998 م .
33. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، جلال الدين السيوطي (911هـ) ،
تحقيق : عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية ،
الكويت ، 1975.